الفصل الثانى

المولى . ومكانته فى نظر العرب

تعريف المولى :

المولى له معان كثيرة فى اللغة ، منها المولى بمعنى السيد ، أو الحليف ، أو ابن العم ، وكذلك من يسلم على يديك ويوالياك ، أو هو المعتق الذى ينتسب بنسبك ، فإذا أعتق سيد عبده التحق هذا المعتق بنسب السيد وتسمى باسم عشيرته كما تسمى بشار بن برد بالعقيلى ، وأبونواس بالحكمى وأبو العتاهية بالعنزى وقد وضح وهوزن معنى المولى فى كتابه « الدولة العربية وسقوطها » فقال : الموالى أسرى حرب من أصل فارسى ، ويكونون طبقة وسطى بين أسيادهم العرب وبين الذين ليسوا عرباً فلا يؤدون جزية ، ولا خراجاً ، ولا يدونون فى ديوان المقاتلة وليس لهم مرتب شهرى ، ولو أنهم يحاربون مع أسيادهم الذين منوا عليهم بالعتق(١).

وقد نشأ نوع آخر من الموالى سماهم ابن خلدون « موالى الاصطناع » ذلك بأن يختار الخليفة أو الأسر جماعة يلحقهم بنسبه كما فعل هرون الرشيد مع البرامكة والخراسانيين ، وكما فعل المعتصم مع الترك . ثم توسعت كلمة الموالى بعد ذلك بتوسع حركتهم فأطلقت على الذين دخلوا الإسلام من الفرس ، وعلى حركة هؤلاء فى نطاق الخلافة الشرقية سيقتصر بحثنا .

مكانة المولى فى عيون العرب :

تتجه آراء العرب فى الموالى وجهتين ، فالنبى والخلفاء الراشدون

---

(١) وهوزن الدولة العربية وسقوطها ص ١٧٤

وغيرهم من حملة العقيدة وناشريها لا يرون فرقاً بين المولى المسلم وأخيه العربي . فقد كان سلمان الفارسي مولى رسول الله وكان علي بن طالب يقول : سلمان منا أهل البيت[١] . وقد سمع عمر بن الخطاب أن وفداً من الموالي والعرب جاء إلى عامله ، فأعطى العرب ومنع الموالي فكتب عمر : « أما بعد ، فحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام . » وفرض عمر للهرمزان في ألفين من العطاء كما جعل عطاء سلمان الفارسي أربعة آلاف درهم[٢] ، والذين أتقنوا اللغة وتفقهوا في الدين منهم كانوا يتمتعون بعطف أخوي اكتسبوه بالإسلام فكانوا يفتون ويقضون في المدن مثل سعيد بن جبير بالكوفة وسليمان بن يسار بمكة . وزيد ابن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن نجيح في المدينة ، وطاوس وابنه وابن منبه في اليمن ، وعطاء بن عبد الله الخراساني في خراسان ومكحول بالشام ، والحكم بن عتيبة ، وعمار بن سلمان بالكوفة ومحمد بن سيرين بالبصرة[٣].

أما أهل الوجهة الثانية فهم عامة العرب وهم الذين يعتدون بتقاليدهم وشمائلهم ويعتزون بدمهم ويرون أن المولى لا يكون كفئاً للعربي لأن الدين لم يتمكن بعد من قلب المولى ولأن فيه صفات كثيرة لا تؤهله لذلك وكانوا يأخذون على الموالي أموراً لا تتفق مع مبادئ الإسلام منها : أنهم كانوا يتآمرون عليه ، ويخالفون قواعده باشتهارهم بشهادة الزور ، ومنها عدم الوفاء والختر ، والعجمة ، ويستدلون على هذه بحوادث

وأما عدم تمكن الإسلام في قلوب كثير منهم فقد وضح بما جاء في حديث سياه إلى أبي موسى الأشعري ، فقد بعث سياه وفداً إلى أبي موسى فقالوا له : « إنا قد رغبنا في دينكم على أن نقاتل معكم العجم ، ولا نقاتل

---

(١) الكامل للمبرد ص ٧١٣ (٢) البلاذري فتوح جـ ٢ ص ٤٥٧

(٣) العقد جـ ٢ ص ٧٦

معكم العرب ، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا بأشرف العطاء ، ويعقد لنا الأمير الذى هو فوقك بذلك » . فقال موسى : « بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

قالوا لا نرضى ، فكتب أبو موسى إلى عمر بذلك ، فرد عليه بأن أعطهم ما سألوك ، فأجابهم أبو موسى ، وأسلموا ، ولكنهم لم يبرهنوا على إسلامهم ، فقد رآهم أبو موسى فى حصار تستر غير جادين ، فقال سياه : « لسنا مثلكم فى هذا الدين ولا بصائرنا كبصائركم » وليس لنا حرم نحامى عنهم ، ولم تلحقنا بأشرف العطاء « ولنا سلاح وكراع » وأنتم حضر . فكتب أبو موسى إلى عمر بذلك . فرد عليه أن ألحقهم على قدر البلاء فى أفضل العطاء [1] .

ومن أمثلة عدم الوفاء ما اعتد به الحجاج بن يوسف الثقفى على سعيد ابن جبير لنقضه عهداً فى عنقه . فلما أتى به بعد انقضاء أمر ابن الأشعث قال له الحجاج : يا شقى بن كسير : أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربى ، فجعلتك اماما ؟ قال : « بلى ! . . » قال : « أما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربى ؟ فاستقضيت أبا بردة بن موسى الأشعرى وأمرته ألا يقطع أمراً دونك » ، قال : بلى ! قال : أو ما جعلتك فى سمارى وكلهم من رءوس العرب ؟ قال : بلى ! قال : « أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها فى أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شىء منها ! قال : بلى ! قال : « أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك فى عنقك قبل ؟ والله لأقتلنك ، يا حرسى اضرب عنقه . » ونظر الحجاج فاذا جل من خرج مع عبد الرحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالى ، فأحب

---

(١) ط ٥ ج ص ٢٥٦٢ . وزاد البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٣٧٣ وإنما دخلنا فى بدء أمرنا تعوذا .

أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ويخلطهم بأهل القرى والأنباط وقال : « إنما الموالى علوج عجم » وإنما أتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم فأمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل واحد منهم اسم قريته (١) .

وزاد ابن الأثير أن الحجاج لما أرسل الموالى إلى قراهم ، وضع عليهم الجزية وهم إسلام كما كانت تؤخذ منهم وهم كفار (٢) . وجاء عنه أيضا : أن مصعب بن الزبير أسر جماعة من أصحاب المختار كان فيهم العرب والموالى فأمر باطلاق العرب وقتل الموالى (٣).

ومن الأمثلة التى وضعت من شأن الموالى فى عيون العرب : أنهم كانوا معروفين بشهادة الزور وأنها صفة من صفاتهم وفى ذلك يروى : أن رجلا خاصم آخر فى دين إلى أياس قاضى عمر بن عبد العزيز (٧٣٩ — ٤٠م) ، (١٢١ — ٢٢ هـ) فى البصرة فطلب منه البينة فلم يأته بمقنع . فقيل للطالب استجر وكيع بن أبى الأسود حتى يشهد لك . فإن إياسا لايجترىء على رد شهادته ففعل . فقال وكيع : « والله لأشهدن لك ، فان رد شهادتى لأعممنه السيف . فلما طلع وكيع فهم إياس عنه . فأقعده إلى جانبه ، ثم سأله عن حاجته ، فقال : « جئت شاهداً » فقال : يا أبا المطرف أتشهد كما تفعل الموالى والعجم ؟ أنت تجل عن هذا » فقال : « والله لا أشهد (٤) » .

ومما يأخذه العرب على الموالى : العجمة والخور : فان العرب لايعترفون للموالى بالفصاحة واللغة : مر الشعبى بقوم من الموالى يتذاكرون النحو

---

(١) الكامل : ٢٨٥ . ابن خلكان طبع أوربا ص ٢٩٠ العقد الفريد ٢ ج ص ٧٥
(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٧٦ كريمر تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٦ .
(٣) ابن الاثير ج٢ ص ٢٢٥ . (٤) الكامل ص ٢٥٤ .

فقال : لئن أصلحتموه ، إنكم لأول من أفسده » كما أنهم لا يعترفون لهم بالشجاعة التي يسمى بها العرب ، قال المختار لإبراهيم بن الأشتر يوم خازر[١] : إن عامة جندك هؤلاء الحمراء ، وإن الحرب إن ضرستهم هربوا ، فاحمل العرب على متون الخيل وأرجل الحمراء أمامهم[٢] .

ومنها انفراد الموالى بالحرف :

فقد كان العرب يأنفون من الصناعة ، ويرون فيها حطة لا تتفق مع القوة والرجولة ، ويرون أن الصناع والأكرة من طبقة الخدم والعبيد على حسب العرف والعادة الشائعة فى ذلك الزمن . جاء فى العقد الفريد أن نقاشا حدث بين حمران مولى عثمان بن عفان وبين عامر بن عبد القيس ، فقال حمران : « لا كثر الله فينا مثلك » ، فقال عمران : « بل كثر الله فينا مثلك » ، فقيل له : أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال نعم ! يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا[٣] .

لهذا ولأشباهه لم يكن للموالى مركز ممتاز فى عيون عامة العرب ، فقد كانوا لا يكنونهم بالكنى ، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون فى الصف معهم ولا يقدمونهم فى المواكب ، ولا يتركونهم يؤمون فى صلاة الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الحاضر غريراً[٤] ولا يزوجون بناتهم إلى أعجمى ، لأنهم لا يرون ولد الأعجمية كفؤا لولد العربية . قال ابن الأعرابى : « غاب العجير غيبة إلى الشام وجعل أمر ابنته إلى خالها وأمره أن يزوجها بكفء ، فخطبها مولى لبنى

---

(١) خازر نهر بين أربيل والموصل حدثت حوله واقعة بين عبد الله بن زياد وإبراهيم بن مالك الأشتر النخعى وقتل يومئذ عبد الله بن زياد عام ٦٦ هـ (راجع معجم ياقوت ج ٢ طبع أوربا .

(٢) الكامل ص ٢٦٤ .

(٣) عقد ج ٢ ص ٩٢ ، كريمر تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٦

(٤) عقد ج ٢ ص ٢٤ ، الكامل ج ١ ص ٢٦٢ ، كريمر تاريخ الثقافة ص ١٥٦

هلال كان ذا مال ، فرغبت أمها فيه ، وأمرت خال الصبية الموصى إليه بأمرها أن يزوجها منه ففعل ، فلاذت الجارية بأخيها الفرزدق بن العجير وبرجال من قومها وبابن عم لها يقال له قيل فمنعوا جميعاً منها سوى ابن عمها القيل ، فإنه ساعد أمها على ما أرادت ومنع منها الفرزدق ، فلما قدم العجير أخبر بما جرى ، ففسخ النكاح وخلع ابنته من المولى[١] .

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخطبها إلى مواليها ، فإن رضى زوج ، وإلا رد النكاح . فإن زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وإن كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح[٢] . وكانوا لا يعترفون بولد الأمة شقيقاً صحيحاً ، فقد جاء أعرابى من بنى العنبر إلى القاضى سوار بن عبد الله ، فقال : إن أبى مات وتركنى وأخاً لى وخط خطين فى الأرض ، ثم قال وهجينا وخط ناحية ، فكيف نقسم المال ؟ فقال القاضى : أههنا وارث غيركم ؟ قال : لا ! قال : المال بينكم أثلاثا . فقال الأعرابى : لا أحسبك فهمت عنى ، إنه تركنى وأخى وهجينا لنا . فقال سوار : « المال بينكم أثلاثا » قال الأعرابى : أيأخذ الهجين كما آخذ وكما يأخذ أخى ؟ قال : أجل ، فغضب الأعرابى . ثم أقبل على سوار فقال : تعلم ! والله إنك قليل الخالات بالدهناء ، (قيل إنه ليس بالدهناء أمة وإنما كان فيها الحرائر) فقال سوار : إذن لا يضير ذلك عند الله شيئاً[٣] .

وزعم الأصمعى قال : سمعت أعرابياً يقول : « أترى هذه العجم تنكح نساءنا فى الجنة ؟ » قال : « أرى ذلك والله بالأعمال الصالحة » قال : توطأ والله رقابنا قبل ذلك »[٤] .

---

(١) أغانى جـ ١١ ص ١٥٤ ، كريمر تاريخ الثقافه جـ ٢ ص ١٥٥ كولد زيهر — الدراسات الإسلاميه جـ ١ ص ١٢٨ (٢) عقد جـ ٢ ص ٧٤

(٣) الكامل ص ٢٥٦ ، العقد جـ ٢ ص ٩٣

(٤) الكامل جـ ١ ص ٧١١ — ٧١٣ .

ومما كان يجرى على ألسنة الناس فى شأن الموالى ، ما جاء فى شعر جرير حين نزل بقوم من بنى العنبر بن تيم ، فلم يقروه حتى اشترى منهم القرى . وانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف ان بيعكم
رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكه بيعاً فقلت لهم
بيعوا الموالى واستحيوا من العرب[١]

وما جاء عن نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف . إذا مرّ عليه بالجنازة سأل عنها ، فإن قيل قرشى ، قال : وا قوماه ! وإن قيل عربى ، قال : وا ما دناه ! وإن قيل مولى أو أعجمى قال : اللهم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت[٢] . هكذا كان أصحاب هذه الوجهة ومن إليهم ينظرون إلى الموالى ، وهكذا كانت دولة بنى أمية فى أولها ، أى قبل أن يتولى فيها الأمر عمر بن عبد العزيز تستظهر فى حروبها وولاية أعمالها برجال العرب، مثل سعد بن أبى وقاص ، وزياد بن أبى سفيان والحجاج بن يوسف الثقفى ، والمهلب بن أبى صفرة ، وعبيد الله بن زياد وغيرهم[٣] . وترى من شروط الوالى والقاضى التفقه فى الدين والقدرة على الإقناع والإفصاح فى اللغة ، لهذا لما عين نوح بن دراج قاضياً فى البصرة زمن عمر بن عبد العزيز هال أمره العرب ، ورءوا فى ذلك خرقاً للعرف والعادة فأنشد شاعرهم:

إن القيامة فيما أحسب اقتربت إذا كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حياً له الحجاج ما بقيت صحيحة كفه من نقش حجاج

---

(١) الكامل جـ ١ ص ٢٦٢ كريمر تاريخ الثقافة جـ٢ ص ١٥٦ .
(٢) الكامل جـ ١ ص ٧١١ — ٧١٣ .
(٣) مقدمة بن خلدون ص ٣٣٠ .